سيد قومه بني عبد الأشهل فأسلموا جميعاً بإسلامه

سعد بن معاذ .. اهتز عرش الرحمن لموته

اسمه سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل، كنيته أبو عمرو، أما أمّه فهي كبشة بنت رافع بن معاوية بن عبيد بن الأبجر وهي ممن بايع الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

إسلامه

كان رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- قد بعث مصعب بن عمير بعد بيعة العقبة الأولى إلى المدينة؛ ليدعو الناس إلى الإسلام ويعلمهم الدين، فأسلم معه أسعد بن زرارة، وبدأ يدعو الناس إلى الإسلام مع مصعب.

أمّا سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فقد كانا رئيسي قومهما بالمدينة، فلما علما بأمر مصعب وأسعد، قال سعد بن معاذ لأسيد اذهب إليهما وانظر في أمرهما، فإنّ أسعد ابن خالتي ولو كان غير ذلك لنظرت أنا في أمره، وأخذ أسيد حربته وتوجه إليهما، فطلب مصعب إليه أن يجلس فيسمع منه فتلا عليه القرآن فأسلم معه.

وعاد إلى سعد وقد تغير وجهه، فسأله عن أمره فقال: كلمت الرجلين وما رأيت بهما بأساً، وقد حُدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، فغضب سعد مما سمعه وخرج إلى أسعد، فرآه مطمئناً، فعرف غاية أسيد من قوله، فقال لأسعد: لولا أنك ابن خالتي ما رأيت مني ما رأيت، فطلب منه أن يسمع ما يقوله له، فعرض عليه الإسلام وتلا عليه القرآن فأسلم وتطهّر.

وسعد بن معاذ سيد قومه بني عبد الأشهل، فأسلموا جميعاً بإسلامه، فكان بنو عبد الأشهل أول دار في يثرب تُسلم جميعاً، ثم إن سعد دعا مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة إلى داره، وأصبحت دار سعد مقر الدعوة الإسلامية في ذلك الوقت.

مناقبه

تظهر مناقب سعد في مجموعة من الأحاديث النبوية منها ما يأتي:

- المكانة الإجتماعية، والرفاهية الحياة : ثبت عن البراء بن عازب -رضي الله عنه- فقال: (أُهْدِيَتْ للنبيِّ -صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- حُلَّةُ حَرِيرٍ، فَجَعَلَ أَصْحَابُهُ يَمَسُّونَهَا وَيَعْجَبُونَ من لِينِهَا، فقالَ: أَتَعْجَبُونَ مِن لِينِ هذه؟ لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ خَيْرٌ منها، أوْ ألْيَنُ).
- قوةُ إيمانه ومكانته في الإسلام : ثبت عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- أنّ رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- قال: (اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ).
- الحكمة ورجاحة الرأي : ثبت عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- فقال: (أنّ أُنَاسًا نَزَلُوا على حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فأرْسَلَ إلَيْهِ فَجَاءَ علَى حِمَارٍ، فَلَمَّا بَلَغَ قَرِيبًا مِنَ المَسْجِدِ، قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: قُومُوا إلى خَيْرِكُمْ، أوْ سَيِّدِكُمْ. فقالَ: يا سَعْدُ إنَّ هَؤُلَاءِ نَزَلُوا علَى حُكْمِكَ. قالَ: فإنِّي أحْكُمُ فيهِمْ أنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ، قالَ: حَكَمْتَ بحُكْمِ اللَّهِ، أوْ: بحُكْمِ المَلِكِ).

صفاته

كان سعد بن معاذ طويل القامة، عريض المنكبين، أبيض البشرة، حسن اللحية، قالت فيه عائشة -رضي الله عنها-: (ثلاثةٌ من الأنصار لم يكن أحدٌ يعْتَد عليهم فضلاً كلُّهم من بني عبد الأشهل : أَسَيدُ بنُ حُضَير وسعدُ بنُ مُعاذ وعبادُ بنُ بشر).

وفد اتصف سعد بدفاعه وحميته لرسول الله حين يسمع الكافرين يسبّونه، مناصراً لله ورسوله، شديد الحبّ لرسول الله والخوف عليه مما يضيره، حتى عرض عليه يوم بدر أن يقيم له عريشاً يجلس فيه، ويقوم بحمايته من العدو، فدعا له رسول الله وأثنى عليه.

وكان -رضي الله عنه- شديد الغيرة على زوجته، حتى قال لرسول الله لمّا نزلت آية الملاعنة في القرآن: (لَوْ رَأَيْتُ رَجُلاً مع امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بالسَّيْفِ غيرَ مُصْفِحٍ، فَبَلَغَ ذلك النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّمَ- فَقالَ: أتَعْجَبُونَ مِن غَيْرَةِ سَعْدٍ، لَأَنَا أغْيَرُ منه، واللَّهُ أغْيَرُ مِنِّي).

أعماله

كان سعد بن معاذ من الذين شاركوا مع رسول الله في غزوة بدر، وكان له موقفه الثابت والشجاع حين قال لرسول الله: «امض يا رسول الله لما أردت ونحن معك، لو خضت عرض البحر خضناه معك ما تخلّف منا أحد، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسر على بركة الله».

ولمّا حاصر رسول الله وأصحابه بني قريظة، ولما يئس بنو قريظة من انفكاك الحصار عنهم وتراجع النبي، قرروا النزول عند أمر النبي، فأولى رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- أمر التحكيم لسعد بن معاذ ليقرر فيهم، وكان قد أصيب فجعله رسول الله في خيمة رفيدة الأسلمية تداويه، فذهب إليه قومه فحملوه وتوجهوا معه إلى رسول الله ليحكم في بني قريظة.

وقال له رسول الله: يا سعد احكم في بني قريظة، فأراد حينها سعد أن يأخذ الحق لرسول الله والمسلمين مما أصابهم من بني قريظة، وقد كان آخر ذلك ما أصابهم في غزوة الخندق التي كادت أن تهلك المسلمين، فقال سعد: إنّي أرى أن يقتل مقاتليهم، وتُسبى ذراريهم، وتقسّم أموالهم.

قصته في غزوة بدر

استشار رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أصحابه في غزوة بدر فأشاروا عليه، فأراد منهم الأنصار، فقال له سعد: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله»؟ فقال: أجل، فقال معاذ: «فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به الحق، وأعطيناك مواثيقنا عَلَى السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك فينا ما تقر به عينك، فسر بنا عَلَى بركة الله»، فكان هذا دافعا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- لخوض المعركة.

وخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لملاقاة المشركين في بدر في اليوم الثامن من شهر رمضان المبارك، وجعل ابن أمّ مكتوم إماماً بالناس في المدينة، وسلّم اللواء لمصعب بن عمير -رضي الله عنه-، وكان لونه أبيضاً، وجعل أمامه راية سوداء يحملها علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- اسمها العقاب، وأخرى مع جماعة من الأنصار بقيادة سعد بن معاذ -رضي الله عنه-، وكان القوم على سبعين من البعير يتناوبون عليها، ووكّل السّقاية لقيس بن أبي صعصعة -رضي الله عنه-، وقد تكوّن جيش الأنصار بقيادة سعد -رضي الله عنه- من الأوس وعددهم واحدٌ وستون رجلاً، والخزرج وعددهم مئة وسبعون رجلاً، ويشكّل هذا العدد ثلثي عدد رجال بدر، ممّا يعني أنّ القيادَة العظمى لأكبر عدد من الجيش كانت تحت ولاية سعد -رضي الله عنه-، ولهذا السّبب اهتزّ عرش الرحمن لوفاته -رضي الله عنه-.

وحرص سعد بن معاذ -رضي الله عنه- على حراسة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وحمايته في عريشه مع مجموعة من رجال الأنصار يحملون سيوفهم، حتى إذا انقضّ العدو على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قاموا بحمايته، ثمّ لما انتصر المسلمون وأخذوا أسرى كره ذلك، وقال لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «أوّل وقعة أوقعها الله بالمشركين كان الإثخان أحبُّ إليّ منَ استبقاء الرّجال»، فكان يرى أنّ قتل المشركين في أوّل غزوة أفضل من أسرهم؛ وذلك كي لا يجترئون على المسلمين مرة أخرى.

وفاته

أصيب سعد بن معاذ في غزوة الخندق بسهم في كاحله، فلما أُصيب دعا الله إن بقي شيئاً من الغزوات ضدّ قريش أن يُبقيه ليشارك بها، فاستجاب الله لدعائه فأبقاه ليُحكّمه رسول الله في بني قريظة، ولما حكم فيهم قال له رسول الله: لقد حكمت فيهم يا سعد بحكم الله من فوق سبع سماوات.

وبعد التحكيم أعاده الصحابة إلى خيمة رفيدة ليكمل تمريضه فيها، وإذا بالمسجد قد امتلأ بالدم، فإذا بجرحه قد انفجر وسال الدم منه، حتى استشهد وقام رسول الله بتشييع جثمانه، وكان ذلك في السنة الخامسة من الهجرة، فقال رسول الله حين موته: (اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بنِ مُعَاذٍ).